Mohi-ud-Din Journal of Islamic Studies (MJIS) مجلة محي الدين للدراسات الإسلامية
ISSN 3007-3820 (Print) | 3007-3812 (Online)
(Jan-June) 2025, 3:1 (1-16)
(يناير- يونيو ٢٠٢٥)، ٣ : ١

العطف المتداخل بـ"ثم" في القرآن الكريم : دراسة تحليلية

Al-ʿAṭf al-Mutadākhil by 'Thumma' in the Qur'ān: An Analytical Study

Prof. Dr. Nabil Fouly Mohamed Mongy[a]

[a] Professor, Faculty of Islamic Sciences, Fatih Sultan Mehmet Vakıf University, Turkey

Corresponding author Email: nfmmongy@fsm.edu.tr

How to cite: Nabil Fouly Mohamed Mongy, *Al-ʿAṭf al-Mutadākhil by 'Thumma' in the Qur'ān: An Analytical Study*," *Mohi-ud-Din Journal of Islamic Studies* 3, no. 1 (2025): 1-16.

ABSTRACT

This study examines the particle "ثم" *thumma*, one of the significant particles of meaning (*ḥurūf al-maʿānī*) in the Arabic language, by exploring its Qur'anic usages that go beyond its conventional meaning, namely, denoting sequential order with temporal delay between the conjuncts. The research draws attention to a distinctive pattern of coordination, which it terms "interwoven coordination", wherein the temporal relationship between the two events is not straightforwardly successive, but rather the second event overlaps with or intersects the first at various stages. The study begins with a foundational review of the views of classical linguists and exegetes on the meanings of *thumma*, then proceeds to analyze several Qur'anic passages that appear to exemplify this particular usage. It raises the question of whether this usage justifies being recognized as a distinct linguistic category, and highlights the rhetorical functions this style serves in certain contexts—especially its role in manifesting divine patterns (*sunan*) in history, as illustrated in *Sūrat al-Mu'minūn*. The research concludes that the phenomenon of interwoven coordination represents a distinct linguistic feature within Qur'anic usage, supported by credible textual evidence. It also serves powerful rhetorical purposes, most notably in intensifying the theme of divine law and affirming the inevitable outcome of denial, as exemplified in the case study from *Sūrat al-Mu'minūn*.

Keywords: Thumma (ثم), Qur'anic linguistics, Rhetorical functions, Al-Qur'an, Analysis

Mention in the table a brief sketch of second author's Contribution (if any):- (Maximum two Authors allowed only)

C All Contents of this publication is copyrighted and property of *Mohi-ud-Din Journal of Islamic Studies*, and restricted to commercial use. It allows Research uses only, provided that original author(s) and sources should be credited with a proper academic referencing.

يتناول هذا البحث حرف "ثم"؛ أحد حروف المعاني في اللغة العربية، من خلال استعمالاته القرآنية التي تجاوزت المعنى المعهود له، وهو الترتيب مع التراخي بين المعطوف والمعطوف عليه، ويلفت البحث النظر إلى نمط خاص من العطف بهذا الحرف سماه "العطف المتداخل"، حيث لا تكون العلاقة الزمنية بين الحدثين متعاقبة صريحة، بل يقع بينهما نوع من التداخل الزمني، فيتخلل الحدث الثاني الأول، أو يتقاطع معه في مراحل مختلفة.

ينطلق الباحث من عرضٍ تأصيلي لأقوال اللغويين والمفسرين في معاني "ثم" باختصار، ثم يستعرض عددًا من الشواهد القرآنية التي يرى أنها تُمثّل هذا النمط الخاص من العطف، متسائلًا عن مشروعية عدّه نوعًا مستقلاً من الاستعمال، ومبرزًا الوظائف البلاغية التي يحققها هذا الأسلوب في بعض النماذج، خاصة في إظهار سنن الله في التاريخ، كما في سورة المؤمنون.

خلص البحث إلى أن: ظاهرة العطف المتداخل تمثّل نمطًا لغويًا ذا خصوصية في الاستعمال القرآني، وأنه لم يسبق رصدها، وأن له شواهد لغوية معتبرة، وكذلك وظائف بلاغية فاعلة، أبرزها تعميق دلالة السننية وتوكيد العاقبة الثابتة للمكذبين حسب النموذج الأساس المستقى من سورة المؤمنون.

مقدمة

حروف المعاني من الموضوعات المهمة التي تناولها اللغويون والمفسِّرون والأصوليون بالدراسة قديما وحديثًا، حتى خصَّها بعضهم بمؤلَّف مستقل؛ كأبي القاسم الزجّاجي (ت 340هـ) في "حروف المعاني"، وأبي الحسن الرمّاني (ت 384هـ) في "معاني الحروف"، والحسن بن قاسم المرادي (ت 749هـ) في "الجنى الداني في حروف المعاني"؛ هذا غير من أفردوا فصولا من كتبهم لهذا الموضوع، وهم كثيرون.

ومن حروف المعاني ذات الاستخدام الكثير في القرآن الكريم والكلام العربي الفصيح "ثُمَّ" التي اعتاد العلماء أن يذكروا أنها حرف عطف يفيد الترتيب الزماني بين شيئين مع المهلة بينهما، وإن أفادت غير هذا من معاني العطف أوّلوها بأنها نابت مناب حرف عطف آخر يُفهَم من السياق.

ومع هذا نجد لهذا الحرف من حروف المعاني استعمالات أخرى في القرآن الكريم تختلف عن كونه حرفًا يميز بين شيئين أو فعلين أو حدثين تمييزًا زمانيًا يرتبط بالرَّيْث والمَهَل، وذلك بعطف شيء على آخر مع تعدد حالات الثاني وتخلله لما قبله زمانيا، وهو ما تسميه هذه الدراسة "العطف المتداخل" كما سيظهر في الصفحات التالية، ولكن بعد بيان آراء اللغويين في استعمالات "ثم"، ومواقفِ بعض المفسرين من الآيات التي نزعم أنها تضمنت استعمالا لهذا الحرف يخالف ما اعتدناه في النصوص الفصيحة عمومًا، وفي الختام يأتي الحديث عن الملاحظ البلاغية التي تقف وراء استخدام هذا الأسلوب في بعض نماذجه.

وقد دعا إلى البحث في هذه المسألة بعضُ الخصوصيات الأسلوبية التي يمكن ملاحظتها على العطف بالحرف "ثم" في بعض الآيات القرآنية الشريفة، حتى بدت مختلفة عن استعمالات هذا الحرف في باقي القرآن وفي أغلب النصوص العربية الفصيحة شعرًا ونثرًا؛ فهل توفرت في هذه الشواهد - التي

سنسوقها بعد قليل - مسوّغات فعلية تدعو إلى اعتبارها نوعا أو استعمالا خاصا للحرف؟ وإن كان فما الوظيفة البلاغية التي قام بها في بعض هذه الشواهد على الأقل؟

أولا: استعمالات "ثم" عند اللغويين

كثر كلام العلماء في حروف المعاني وما تفيده، وربطوا هذا بالسياق الذي استعملها فيه الكلام العربي الفصيح في القرآن والشعر. وهو موقف علمي ينسجم تمامًا مع المفهوم النحوي الشهير للحرف، وهو أنه لفظ لا يستقل بمعنى، وإنما يُعرَف معناه بضمه إلى غيره من الأسماء والأفعال وفق الترتيبات المعروفة للجملة.

وأهم معنى قرره أهل اللغة لـ "ثم" هو أنها لإفادة الترتيب بين المتعاطفين مع المُدّة أو المهلة الفاصلة بينهما. وهي لا شك مهلة نسبية من حيث الطول والقصر، وتتعلق من هذا الجانب بطبيعة الحدث الذي يشترك فيه فاعلان فُصِل بينهما بـ "ثم"، أو طبيعةِ الحدثين المعطوف أحدهما على الآخر بها؛ مثل: صليت المغرب ثم العشاء، وبعث الله عيسى عليه السلام ثم محمدًا صلى الله عليه وسلم، وخلق الله العرش ثم الفرش.

قال الزجاجي (ت 340هـ) في تقرير هذا المعنى لهذا الحرف: "ثم - بالضم: حرف عطف يدل على أن الثاني بعد الأول وبينهما مهلة"[1]، وقال الرُّمّاني (ت 384هـ): "ثم: وهي من الحروف الهوامل، ومعناها العطف، وهي تدل على التراخي والمُهلة؛ وذلك نحو قولك: قام زيد ثم عمرو، والمعنى أن عمرًا قام بعد زيد وبينهما مهلة".[2]

وذكروا أن الفراء (ت 207هـ) والأخفش (ت 215هـ) وقُطْرُبًا (ت 206هـ) خالفوا في هذا، واعتبروا معنى العطف في "ثم" دون معنى الترتيب؛ فضلا عن المهلة، وحكى ذلك المرادي (ت 749هـ) فقال: "ذهب الفراء فيما حكاه عنه السيرافي، والأخفشُ وقطرب فيما حكاه أبو محمد عبد المنعم بن الفرس في مسائله الخلافيات عنه؛ إلى أن "ثم" بمنزلة الواو لا تُرتّب، ومنه عندهم: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: 6)، ومعلوم أن هذا الجعل كان قبل خلقنا. وزعم بعضهم أنها تقع موقع الفاء؛ كقول الشاعر:

كهزّ الرُّدَينيّ تحت العَجَاج جرى في الأنابيب ثم اضطربْ

أي: فاضطرب، وإليه ذهب ابن مالك؛ قال: وقد تقع "ثم" في عطف المتقدم بالزمان اكتفاءً بترتيب اللفظ، وهذا منقول عن الفراء؛ كقولك: بلغني ما صنعتَ اليوم ثم ما صنعت أمسِ أعجب"[3]، أي

---

[1] - أبو القاسم الزجاجي: كتاب حروف المعاني ص 16، حققه وقدم له: د. علي توفيق الحمد، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت، ودار الأمل إربد بالأردن، 1406هـ/ 1986م.

[2] - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: معاني الحروف ص 119، حققه وخرّج حديثه وعلق عليه: الشيخ عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت – 1425هـ

[3] - الحسن بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني ص 426- 428، تحقيق: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – 1413هـ/ 1992م. وقارن كلام ابن مالك بكلام الفراء في:

أنها لا ترتب حدوث ما صُنع أمس على ما صنع اليوم، بل ترتب الحديثَ عما صُنع أمس على الحديث عما صنع اليوم، وكأنه يعني أنه لا يلزم عن استعمالها إفادة الترتيب بين الأحداث التي تعطف بعضها على بعض.

وقد ردَّ هذا المذهبَ بعدم إفادة "ثم" الترتيب غيرُ واحد من أهل العلم، قال الزجاج (ت 311هـ) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ...﴾: "زعم الأخفش أن "ثم" هاهنا بمعنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعربيته، إنما "ثم" للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير، وإنما المعنى في هذا الخطاب... : بدأ الله خلقَ آدم ترابًا، وبدأ خلقَ حواء من ضلع من أضلاعه، ثم وقعت الصورة بعد ذلك"[4]؛ أي تركبت صورةُ كلٍّ منهما وهيئته بعد بدء خلقه دون تمامه.

ومع هذا، فيبدو لي أن هذا الرأي المخالف لقول الجمهور ليس قولا عامًا في كل استعمالات "ثم"، بل في بعض سياقاتها وشواهدها فقط، ومن الدليل عليه أن الفراء نفسه ذكر أن "ثم" و"الفاء" تفيدان الترتيب في العطف، في حين أن "الواو" لا تستلزمه.[5]

على كل حال، فإن الاستخدام الأساس الذي ورد عليه حرف "ثم" في النصوص الفصيحة هو إفادة الترتيب مع المهلة والتراخي كما سبق، إلا أن له استعمالات أخرى استنبطها العلماء من سياقات لغوية مختلفة، وذكر منها الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله (ت 1404هـ) ما يلي:

إفادتها للاستبعاد والتفاوت كما في قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ (آل عمران: 79).

وإفادتها الترتيب في الذكر دون حمل معنى المهلة والتراخي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ. ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ (الانفطار: 17- 18).

وإفادة الترتيب في الذكر لا الوقوع كما سبق، ومنه الآية: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: 6).

وبمعنى الواو في إفادة مطلق الجمع، وعُدّ منه قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد: 16- 17).

كما يفيد تكرار "ثم" التوكيد في مثل قول الله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (النبأ: 5).

وتأتي زائدة، وللاستئناف، وغير ذلك.[6]

معاني القرآن 1/ 396، بتحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة 1374هـ/ 1955م.

4 - أبو إسحاق الزجاج: معاني القرآن وإعرابه 2/ 321- 322، شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى، عالم الكتب – بيروت 1408هـ/ 1988م.

5 - انظر: الفراء: معاني القرآن 1/ 396.

6 - انظر: محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم 2/ 100 وما بعدها، دار الحديث – القاهرة 1392هـ/ 1972م.

ومع كل ما خاض فيه هؤلاء الأكابر متعلقًا بحرف "ثم" واستعمالاته، فيمكن أن يأخذ التراخي في العطف بـ "ثم" صورا غير زمانية أصلا، فيعبر عن درجة من التفاوت في أمر آخر بين المتعاطفين، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في الصحيح: "خير دُور الأنصار... دور بني النَّجَّار، ثم دور بني عبد الأشهل، ثم دور بني ساعدة، أو دُور بني الحارث بن الخزرج"[7]؛ فقد تفاوت كل متعاطفين أحدهما عن الآخر في الخيرية.

ويمكن القول: إن الحرف "ثم" يجوز استعماله عمومًا في التعبير عن التفاوت بين شيئين أو أشياء في صفة أو صفات؛ سواء أكان زمانيًا أم غيره؛ فقد يُعبَّر به مثلا عن التباعد المكاني بين الأشياء؛ كأن تقول: في هذا الحي بيتُ أخي ثم بيت أبي؛ تعني أن بينهما مسافة. ولو قلت: زرت دار أبي ثم دار عمي، فقد يكون التباعد مكانيا، وقد يكون زمانيا، وقد يكون زمانيا مكانيا معا، فيكون زمانيًا فقط إن كانت الزيارة الأولى طويلة والبيتان متقاربان، ويكون مكانيًا فقط إن كانت الزيارة الأولى قصيرة والبيتان متباعدان، فإن كانت الزيارة طويلة وكان البيتان متباعدين كان العطف زمنيا مكانيًا معا.

ثانيًا: الآيات التي ورد فيها العطف المتداخل وقول المفسرين فيها:

من القواعد المهمة التي ينبغي استحضارها قبل أن نسوق أهم النصوص القرآنية التي احتوت على ظاهرة العطف المتداخل التي تقول بها هذه الدراسة وتحليل المفسرين لها؛ أن استقراء نص لغوي ما معتمَدٍ في تقعيد لغة من اللغات، لا يعني بالضرورة اشتماله على كل استعمالات هذه اللغة وأساليبها، ومن هنا فإن ما نجده في القرآن من ظواهر لغوية ليس لها مثيل في شعر الجاهلية وعصر الاستشهاد؛ لا يعني بالضرورة أنه خروج على لغة العرب؛ لذا فلا حاجة لنا أن نؤوّل مثل هذه الظواهر كي نردها إلى وجه من وجوه الاستعمال المعتادة في لغة الشعر والخطابة العربية وغيرها، ومع هذا سنحاول التماس ما هو قريب من هذه الظاهرة في شعر العرب قدر الوسع.

1- قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 28).

2- وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ. ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: 42- 44).

3- وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: 7- 9).

---

[7] - رواه البخاري في صحيحه الجامع، الحديث رقم 1481، 2/ 125- 126، كتاب الزكاة، باب خرص التمر، مصورة عن نسخة المطبعة الأميرية ببولاق (الطبعة السلطانية) - القاهرة 1311- 1313هـ، دار طوق النجاة - بيروت 1422هـ.

4- وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (فاطر: 11).

5- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (فاطر: 25- 26).

6- وقال سبحانه حاكيا قول نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (نوح: 8- 9).

وهذه لعلها أبرز نماذج ما ورد استعمال "ثم" فيه في القرآن الكريم عاطفةً لشيء على آخر مع التداخل الزمني بينهما، وقد اكتفى الإمام الطبري (ت 310هـ) في تفسيره لقوله تعالى - وبه نبدأ لأنه أبرز الأمثلة لدينا -: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ببيان أن معنى "تترى" هو "يتبع بعضُها بعضًا"[8]، ولم يتكلم عن "ثم" بأي كلمة، وهكذا فعل باقي المفسرين رحمهم الله، إلا أن الإمام البغوي (ت 510هـ) مسّ موضوع المهلة في العطف دون أن يشير إلى التداخل الحاصل من عطف متعددٍ (الرسل) على متعددٍ (الأمم)، فقال: "يعني مترادفِينَ يتبع بعضهم بعضًا غيرَ متواصلين؛ لأن بين كل نبيين زمانا طويلا...؛ من المواترة، قال الأصمعي: يقال واترت الخبر أي أتبعت بعضَه بعضًا وبين الخبرين هُنَيهة"[9]. ولعل غرابة كلمة "تترى" على الأسماع هو الذي شغل أهل التفسير عن بيان هذه الظاهرة اللغوية التي نسعى إلى لفت النظر إليها هنا.

وأما آية سورة البقرة، فقد اهتم المفسرون ببيان المقصود بالميتتينِ والإحياءين الواردة فيها، ولم يُلتفَت في الغالب إلى "ثم" وعملها، وكأنهم أجروها على الغالب في استعمالها، فحمَّلوها معنى الترتيب مع المهلة في الحالات الثلاث: ثم يميتكم – ثم يحييكم – ثم إليه تُرجَعون، بل صرح بهذا جار الله الزمخشري في الكشاف فقال: "فإن قلت: لم كان العطف الأول بالفاء والإعقاب بـ"ثم"؟ قلتُ: لأن الإحياء الأول قد تعقَّب (أي جاء في عقب) الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت، إن أُريد به النشور، تراخيًا ظاهرًا، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يُكتسَب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضًا متراخ عن النشور".[10]

وأما آية سورة نوح: ﴿ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، فقال الإيجي في تفسيرها: "أي دعوتهم مرة بعد أخرى بأي وجه أمكنني. و"ثُم" للتراخي الزماني أو الرتبي"[11]، والتراخي الرتبي يعنون به أن

---

[8] - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 17/ 49، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عبد الله التركي وآخرين، دار هجر – القاهرة 1422هـ/ 2001م.

[9] - أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل ص 882، دار ابن حزم – بيروت 1423هـ/ 2002م.

[10] - محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 1/ 249، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل عبد الموجود وعلي معوض ود. فتحي حجازي، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان – الرياض 1418هـ/ 1998م.

[11] - محمد بن عبد الرحمن الإيجي الشيرازي الشافعي: جامع البيان في تفسير القرآن 4/ 378، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت 2004هـ/ 1424م.

المُراعَى في العطف هو التفاوت بين المتعاطفين في الرتبة لا في الزمان، فقد دعا نوح عليه السلام قومه – كما جاء في السورة - ليلا ونهارًا، فأعرضوا إعراضا شديدا، حتى كانوا يسدون آذانهم عن سماع كلامه، ويغطّون رءوسهم بثيابهم عن رؤية وجهه وفهم إشاراته، ومع هذا بادرهم بالدعوة جهارًا: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، ويبدو أنه كان جهرًا يزيل أثر هذه الموانع، وثنى بما هو أجمع وأشمل: ﴿ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وكأنه يحاول أن يغلب عنادهم تحت سلطان هذا الإصرار على أداء واجبه؛ لذا راح يصول معهم ويجول – من خلال هذا الإعلان والإسرار - في محاولات لإثنائهم عن كفرهم وعنادهم: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا. مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا﴾ (نوح: 10- 20).

ثالثًا: أجزاء العطف المتداخل وتحليل بعض نماذجه السابقة

عند النظر في الأمثلة السابقة لما أُطلق عليه "العطف المتداخل" ستجد مجموعة من العلامات التي تميزه وبها يُعرَف، وتظهر هذه العلامات بوضوح تام في مثال سورة المؤمنون، وتتمثل في ما يلي:

الأولى: أنه علاقة بين جُمَل:

هذا النوع من العطف ينتمي إلى عطف الجمل لا المفردات: فعَطَف في مثال سورة المؤمنون جملة (أرسلنا) على جملة (أنشأنا)، وفي سورة السجدة جملة (جعل) على جملة (سوّى)، وفي سورة نوح عطف جملة (إني أعلنت..) على (إني دعوت..). ونلاحظ أن الجمل المتعاطفة قد تكون فعلية، أو اسمية خبرها جملة فعلية؛ فهي دائما مشتملة على حدث، وهو ما تنتج عنه الصفة الأساسية لهذا العطف؛ أعني التداخل في أجزاء الحدثين اللذين تحملهما الجملتان معبرًا عنهما بالأفعال.

العلامة الثانية: التداخل الزمني

ومعناه أن الحدثين المتعاطفين لا يستقل أحدهما عن الآخر بزمان يخصه، بل ينتهي جزء من الحدث الأول مصحوبًا بجزء من الثاني، ثم يعقبهما جزء آخر من الأول مع جزء من الثاني، وهكذا حتى يُستوفَى زمان الحَدَثين. ولو حاولنا فهم سياق العطف المتداخل في مثال سورة المؤمنون وفقًا لما سبق، فسنجد أن السورة الكريمة حكت قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه، ثم حكت قصة نبي آخر بدون أن تصرح باسمه؛ مفتتحةً قصَّته بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴾ (المؤمنون: 31- 32)، وذكر المفسّرون أن المقصود هو نبي الله هود عليه السلام وقومه، وقيل: بل صالح عليه السلام وقومه.

ثم بدأ العطف المزدوج في جزئه الأول بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[12]، فذُكرت على الجملة مجموعة من الأمم ظهرت في تتابع زمني من بعد نوح وقومه وهود (أو صالح) وقومه عليهما السلام، ومع أنه لم يصرح بأسماء هذه الأمم فالمقصود بهم كما يُفهَم من قصص الأنبياء في سور أخرى هم: قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ومن قاربهم من الأمم؛ أي ما بين زمن هود وزمن موسى عليهما السلام من الأمم، ثم جاء الركن الثاني للعطف بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾، فذكر إرسال رسل هذه المدة الزمنية من هود أو صالح إلى موسى جملة واحدة كذلك.

ونفهم من هذا أنه إذا كان المذكور بعد "ثم" الأولى هو مجموعة من "القرون" أو الأجيال أو الأمم انتشرت خلال فترة زمنية ممتدة لقرون من الزمن، فإن المذكور بعد "ثم" الثانية هم أنبياء هؤلاء الأقوام الذين كانوا في هذه الفترة نفسها، وهنا لا يبدو أننا – كما اعتدنا في استعمال "ثم" - أمام علاقة بين شيئين أو حتى مجموعتين من الأشياء أو الأحداث؛ انتهى زمن الأول منهما، ثم بعد مهلة بدأ زمن الثاني، بل نحن أمام "قرون" من الأمم جاء كل قرن منها على أثر الآخر ذُكروا في عبارة عامة جامعة، وفي مقابلهم ذُكرت رسل هذه الأمم أو القرون بحيث يوافق زمن كل رسول منهم زمنَ أمته، وجاء التعقيب ليدل على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿...كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾، فكأن التداخل الزمني هنا يفيد عند تفكيكه أن الله تعالى أنشأ قرن ثمود وأرسل إليهم صالحا عليه السلام، ثم أنشأ قرن سدوم والقرى المؤتفكة وأرسل إليهم لوطا عليه السلام، ثم أنشأ قرن مدين وأصحاب الأيكة وأرسل إليهم شعيبا عليه السلام، وهكذا.

العلامة الثالثة: تكرار"ثم"

تكرار استعمال حرف العطف "ثم" في العطف المتداخل علامة أخرى غالبة وليست مضطردة في العطف المتداخل في القرآن، فتُعطف به الجملة الأولى على ما قبلها، ثم تُعطَف الثانية على الأولى بـ "ثم" أخرى. ويبدو هذا غير لازم لغة؛ إذ يمكن أن نصوغ مثال سورة المؤمنون بأسلوبنا القاصر هكذا: (أَنشَأْنَا قُرُونًا من بعد قوم هود ثُمَّ أَرْسَلْنَا إليهم رُسُلَنَا)، بل نجد مثالا له في موضع آخر من القرآن، وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (فاطر: 25- 26)، فالحرف "ثم" هنا عَطَف أَخْذَ الله للكافرين - وقد كان أخذًا متعددًا لأقوام متعددين وعلى فترات زمنية متباعدة - على مجيء رسل الله لهم بالبينات والآيات - والرسل كثيرون ويوافق زمن كل واحد منهم زمن قومه -، وهو تعبير شبيه بمثال سورة المؤمنون، بل أشمل منه؛ إذ يعمّ جميع الأمم التي عذبها الله بعد أن كذّبت رسله. هذا كله جاء بدون تكرار حرف العطف الذي يعنينا هنا.

---

[12] - لا يخفى أن "ثم" في هذه الآية تفيد معناها المعهود من الدلالة على التعاقب والمهلة، وأما المفيدة للتداخل فهي "ثم" في الآية التالية. ويلاحظ هذا في بقية الشواهد التي تعدد فيها ذِكر "ثم".

إلا أن هذا التكرار لا يخلو منه مثال آخر مما سبق[13]، ويبدو أن الحاكم فيه هو كون العطف جزءًا من سياق أكبر متصل الحلقات ومتباعد الأحداث، ويختص هو بهذه الصيغة التعبيرية لأغراض خاصة بالمعنى كما سيتضح فيما بعد إن شاء الله.

وقبل أن نحاول تقديم تحليل بلاغي لهذه الطريقة من التعبير نحتاج إلى تحليل أمثلة أخرى مما سبق ذكره على هذه الظاهرة الأسلوبية الفريدة، وقد أخّرتُ هذا التحليل إلى هنا؛ لأنها ليست في جلاء المثال السابق من سورة المؤمنون؛ إذ تحتمل غير هذا الوجه من التحليل والتوجيه كما سيظهر.

أما قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾، فإن الآية الأولى، ويمكن أن نعتبرها تمهيدا للعطف، قد تكلمت عن خلق آدم عليه السلام، والثانية المعطوفة عليها بـ"ثم" تكلمت عن خلق ذريته، والثالثة المعطوفة على الثانية بالحرف نفسه تناولت مراحل خلق الإنسان من تسوية الخِلقة إلى نفخ الروح وشق الأسماع والأبصار وخلق الأفئدة له.

ويعتمد توجيه الأسلوب هنا على أنه عطف مزدوج أو ليس كذلك؛ على مرجع الضميرين في قوله: (سوّاه ونفخ فيه)، فإنْ رجعا إلى آدم فقط أو النسل فقط، فليس بعطف مزدوج، أما إذا أرجعناه إليهما معًا على أساس توحيد الضمير باعتبارهما معا نوعًا واحدًا من الخلق من الأب إلى الذرية، فسيكون عطفًا مزدوجًا يحكي طريقة خلق آدم تمهيدًا، ثم يعطف عليه طريقة خلق ذريته من بعده إلى يوم الدين، ثم إن آدم قد سُوّي ونُفخ فيه من روحه، وكذلك كل واحد من ذريته؛ كلٌّ في زمنه الذي قدره الله له، فذكر خلق كل منهما على حدة رابطًا بينهما بالعطف بـ"ثم"، ثم ذكر تسويتهما كليهما ونفْخَ الروح فيهما مستعملا العطف بالحرف نفسه، وهذا بدلا من التكرار بأن يقول: خلق آدم من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وجعل له سمعا وبصرًا وفؤادًا، ثم جعل نسله من ماء مهين وسوّى كل واحد منهم ونفخ فيه من روحه وجعل له سمعا وبصرًا وفؤادًا.

وقد نقل الشيخ عضيمة عن بعض أهل اللغة أن "ثم" في قوله: (ثم سوّاه) بمعنى الواو؛ أي لا تفيد إلا مطلق الجمع؛ لأن تسوية آدم ونفخ الروح فيه متقدِّمة على خلق نسله من ماء مهين، ومع ذلك تأخر ذكرها هنا، ثم قال الشيخ: "وأُجيبَ بأن "سوّاه" معطوف على الجملة الأولى، وهي (بَدَأَ خَلْقَ

---

[13] - قد يُظَن أن مثال سورة البقرة السابق، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تكررت فيه "ثم" ثلاث مرات في صورة عطف متداخل، لكن لما كان الإحياء الثاني والرجوع إلى الله تعالى نهائيا يحدث كل منهما للخلق جملة واحدة؛ أي بدون مُهَل زمنية بين مخلوق وآخر، فهو ليس من العطف المتداخل، وبهذا يقتصر هذا النوع من العطف في الآية على عطف (ثم يميتكم) على قوله (فأحياكم)، وهذه الفاء الأخيرة في قوله (فأحياكم) فيها هي أيضًا معنى التداخل في العطف كذلك؛ لأن الموت الأول – وهو العدم – يكون عامًا في الخلق، ثم يحييهم؛ أي يخلقهم الله في أزمنة واحدة أحيانا، وفي أزمنة متقاربة أحيانا، وفي أزمنة متباعدة أحيانا أخرى.

آلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ)، وحينئذ فالترتيب متحقق ولا إشكال"[14]، وهنا إشكالية يمكن أن يحلها القول بالعطف المتداخل، فمع استبعاد أن تكون "ثم" هنا لمطلق الجمع كالواو، لكن هل يجوز للعطف أن يتخطى معطوفه القريب إلى آخر بعيد؛ بمعنى أن نترك القول بعطف التسوية على جعل النسل، ونقول بعطفها على بدء الخلق؟! ومع احتمالية هذا الوجه، إلا أنه يبدو بعيدا، ولعل الأقرب منه والله أعلم هو أن نقول إن مرجع الضمير في "سوّاه" إلى مجموع ما ذُكر قبله من آدم ونسله معًا باعتبارهم أفراد نوع واحد أبا وأولادًا.[15]

وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ بدأ بتعميم الإخبار بخلق الناس من تراب، ثم عطف عليه خلقهم واحدا واحدا من نطفة، ثم جَعْله إياهم أزواجا، فالخلق من التراب مباشرة يُقصَد به خلق آدم، ثم صار القانون في ذريته أن يخلقهم الله تعالى من "نطفة" على هذا الامتداد الزمني الطويل، ثم جاء العطف بجعلهم أزواجا متداخلا مع خلقهم من نطفة.

وأما الآيتان من قول نوح عليه السلام في سُورته: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، فيمكن حملهما على العطف المزدوج لو افترضنا أن نوحًا عليه السلام بقي يستعمل كل هذا الأساليب الدعوية مع الناس حسب الموقف والحاجة، ولم يخصَّ كل واحد منها بمرحلة من مراحل دعوته، فهو يدعو الناس أفرادا يجهر لهم بالدعوة، وكذلك يعلن على الجماعة والملأ منهم دعوته، ويُسِر إلى أناس منهم كذلك؛ كل هذا لا على سبيل التتابع الزمني، بل التداخل، وليس على سبيل استعمال أسلوب منها ثم هَجْره والانتقال منه إلى آخر.

ولعل أقرب نماذج الشعر العربي إلى هذه الظاهرة اللغوية، وإن وقع خارج زمن الاستشهاد، قول مهيار الديلمي (ت 428):

تَموق الليالي فيكُمُ ثم تَعقِلُ وتَقْسِطُ في أحكامها ثم تَعدِلُ

وقول الصاحب بن عباد (ت 488هـ):

الشَّيبُ يَنشُرُ عُمراً ثُمَّ يَطويهِ وَالدَهرُ يُبعِدُ هَمّاً ثُمَّ يُدنيهِ

---

[14] - عضيمة: دراسات 2/ 117.

[15] - لعل مما يدعم هذا المعنى أن العلماء حين رووا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم" (رواه مسلم في صحيحه، الحديث 2278، ص 1080، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق، خدمة وعناية: نظر محمد الفاريابي، الطبعة الأولى، دار طيبة – الرياض 1427هـ/ 2006م) تساءلوا عن دخول آدم فيه وكون النبي صلى الله عليه وسلم أعلى منه رتبة كما هو أعلى رتبة من ذريته كلهم، فأجابوا "بأن المراد سيد جنس الآدميين، فلا يخرج آدم؛ لأن المراد من ولد آدم كافة البشر... وبأن دخول آدم أولويٌّ؛ لأن في ولده من هو أفضل منه" شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للعلامة القسطلاني 8/ 279، ضبطه وصححه: محمد عبد العزيز الخالدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت 1417هـ/ 1996م. فعومل آدم وذريته معاملة واحدة؛ أعني على أنهم أفراد جنس واحد.

إلا أنه يصعب اعتبار أي منهما من العطف المزدوج؛ لأن بيت مهيار يشير إلى تقلب الدهر، وتحديدًا إقباله بما يسر بعد أن أصاب بما يَحزُن، فالليالي كما يقول "تموق" أي تفعل الحماقات بما تلحقه بالناس من شدائد ومصائب، ثم تعود فتعقل، والشطر الثاني ما هو إلا تكرار لمعنى الشطر الأول أو إيضاح له، فالليالي حسب قوله "تَقْسِط"؛ أي تجور، ثم تعدل. وهو بيت مدح لمن جارت عليه الحياة، ثم أنصفته.

وبيت ملك إشبيلية ابن عبّاد لا يختلف كثيرا عن سابقه، فهو يعطف بالواو بين حدثين كل منهما مركب من جزئين؛ الأول: أن الشيب يُظهِر عمر الإنسان، وأنه بلغ منه مرحلة ليست قصيرة؛ إيذانًا بما سيفعله بعدها، وهو أن يطوي هذا العمر. ولا يختلف الشطر الثاني عن هذا في تصوير الجو الحزين للشاعر، وهو أن الدهر يعطي الأمل حين يُبعد الهمّ ويُطمع الإنسان في الراحة، لكنه في النهاية، ومهما طال زمان إبعاد الهم، فإنه يعود ليقربه!

والفرق بين البيتين هو أن مهيارًا يمدح شخصًا أصابه بعض البلاء ثم جاءه السعد، في حين أن ابن عباد يلوم على ما أصابه من زوال المُلك وتفرق الشمل وهجوم الهموم عليه في سجنه، وكل منهما يحكي أحداثًا جرت ثم تلتها غيرها، وبين كل حدث وما سبقه مهلة.

رابعًا: الغرض البلاغي من هذا الأسلوب

نحسب أن محاولة بيان الغرض البلاغي لاستعمالات العطف المزدوج في القرآن الكريم تكمل لنا التعرف عليه، وتحتاج هذه المهمة إلى إدراك جيد للسياقات التي ورد فيها؛ نظرا للالتحام الظاهر بينه وبين سياقه في كل مثال سابق، ولعل هذا أمر عام في فهم شتى الظواهر البلاغية التي ترد في الكتاب الكريم وفهم وظائفها، فنسعى إلى فهم السياق الخاص بها؛ أي المَقْطع الذي وردت فيه، ثم السياق العام؛ أي السورة في عمومها.

وسأركّز في التطبيق هنا على مثال سورة المؤمنون أيضًا؛ لأنه يكاد يكون المثال النموذجي في هذا الباب، ونحسب أنه لا يحتمل وجهًا آخر من التوجيه الأسلوبي والبلاغي؛ أعني العطف المتداخل بالمعنى الذي سبق بيانه.

والنظر في السورة الكريمة يؤكد؛ من خلال اسمها، والألفاظ الأكثر استعمالا فيها، والموضوعات التي اشتملت عليها، وطريقة معالجتها لها؛ أنها تدور حول موضوع الإعراض عن العبودية لله الواحد (أي الإعراض عن الإيمان الذي اشتُق منه اسم الفاعل: "المؤمنون")، وتسوق لبيان مخالفة هذا للصواب المسوِّغاتِ الجليّةَ التي تضعها أمام عقول المخاطبين بالسورة وقلوبهم؛ وأولهم قريش؛ أول من تلقى هذا الخطاب، وتتمثل أهم هذه المسوِّغات فيما يلي:

- أن الجماعة المؤمنة تحمل من الصفات الجميلة، والأخلاق الحسنة، والأعمال القويمة، والمصير الممتاز ما يجعل كل عاقل بار يتمنى أن يكون من أفرادها (الآيات من 1- 11). وذكر لهذه الجماعة وقادتهم من الرسل محاسن أخرى في غير موضع من السورة (الآيات 51- 52، و57- 61).

- أن الإنسان هو صنعة الرب تعالى التي قلّبها في مراحل وأطوار تبدأ بالنطفة وتنتهي بالوقوف بين يديه للحساب على ما قدم، وبينهما ما بينهما مما يُظهر قدرة الله تعالى المطلقة ونعمته السابغة على عبده (الآيات 12- 16)؛ فهل يُعقَل أن يُعبَد بعد هذا غيره سبحانه ؟!
- واستكمالا لبيان الآيات والآلاء انتقلت السورة من نطاق الوجود الخاص إلى الوجود العام، فذكرت خلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء بوصفين حكيمين؛ الأول: أنه "بقَدَر" ملائمٍ لبقاء الحياة، والثاني: أنه يسكن في الأرض لحين الحاجة إليه في صورة أنهار وبحيرات عذبة ومياه جوفية، وإلا احتاج الإنسان إلى أن يظل المطر ينزل بلا توقف، وفي هذا ما فيه من أذى للأحياء وإفساد للحياة. وتنتج عن هذا المطر آلاءُ الله في النبات والأنعام وما فيهما من المآكل والمنافع الكثيرة (الآيات: 13- 22).
- والآيات التالية إلى الآية الخمسين اشتملت على طائفة من قصص الأنبياء السابقين وأممهم في سياقات مختصرة؛ بدءا بقصة نوح عليه السلام، ثم أمة أخرى لم يسمّها القرآن: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ (المؤمنون: 31)، إما أنهم قوم هود أو قوم صالح حسب كلام المفسرين، ثم عمَّم فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ (42)، ثم قصة موسى عليه السلام، ثم إشارة في آية واحدة إلى المسيح وأمه عليهما السلام. وساد في حكاية هذا القصص أمران: الدعوة إلى عبادة الله وحده، ثم بيان مصير الأقوام المكذِّبين بالهلاك.
- بيان ربوبية الله تعالى لهذا الوجود بأرضه وسمائه وعرشه وفرشه ومن فيهن (الآيات 84- 89)، وهو تأكيد لمعنى الآيات المشار إليه آنفًا، وتجلى هذا البيان في أنحاء السورة بكثرة استعمال لفظ "رب" فيها حتى بلغ ثلاثًا وعشرين مرة، مضافا أحيانا إلى لفظ صريح (رب السموات – رب العرش)، أو إلى ضمير، وتنوع هذا الضمير حتى شمل كل صوره، كالإضافة إلى ضمير المتكلم المفرد (ربِّ)، وجماعة المتكلمين (ربنا)، والغائب المفرد (ربه)، والغائب الجمع (ربهم)، والمخاطب المفرد (ربك)، والمخاطب الجمع (ربكم)، فهو رب كل شيء، وهو لهذا جدير وحده بأن يُعبَد.
- عدم منطقية خطاب المشركين، وافتقاره إلى البرهان، وهو أمر واضح في مواضع كثيرة من السورة؛ منها الحوار الذي أجرته معهم في الآية السادسة والستين وما بعدها، وقبل نهاية السورة بآية واحدة جاء قوله تعالى المتعلق في هذا الجانب: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (117).
- وأخيرًا: نقل صورة مستقبلية من المصير السيئ الذي ينتظر هؤلاء المشركين العُمْي، والندم الذي سيصيبهم على تقصيرهم في حق الله واستهزائهم بالمؤمنين، وذلك حين يتمنون أن

يرجعوا إلى الدنيا، ولكن هيهات هيهات، وهو خطاب عميق التأثير في ذوي القلوب الحية (الآيات: 101- 116).

ومهما يكن من أمر، فليس الغرض هنا إلا بيان الوجهة العامة التي تتجه إليها السورة الكريمة كما تظهر خلال ألفاظها وسياقاتها وعلاقاتها؛ تمهيدا لبيان ما عساه يكون مقصودا من استعمال أسلوب العطف المتداخل فيها.

ولكي نفهم هذه النقطة الأساس نطرح هذا السؤال: ما البديل التعبيري عن هذا الأسلوب مما كان يمكن توظيفه في السورة؟ البديل هو أن يقص القرآن قصص طائفة من الأنبياء وأممهم على التتابع واحدًا واحدًا قَصًّا صريحًا (أي بذكر اسم النبي وقومه وقصتهم معه على التتابع الزمني) كما نجده في سور أخرى كالأعراف وهود والشعراء، ولكن هذا لا يحقق الغرض من القصص الوارد في سورة "المؤمنون" تحديدًا؛ فهي أولا لا يكفيها إيراد معنى عام حول مواقف الأنبياء من رسلهم والمصير الذي آلوا إليه، ولا يكفيها التفصيل؛ لذا جمعت بينهما.

وقد جاء هذا الجمع على هيئة تلائم الرسالة التي تحملها السورة كما سبق إيضاحها، فصرَّحت في البداية والنهاية فقط باسم النبي وقومه (نوح وموسى عليهما السلام)[16]، وركز السياق في القصتين - وإن باختصار شديد – على أمرين أساسين:

الأول: دعوة كلا النبيين لمن أُرسلا إليهما؛ فنوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، وموسى: أرسله الله تعالى كما قال: ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ أي دلائل النبوة الواضحة التي أيدهما الله بها. وهما أول وآخر نبي عذب الله خصومهما من الكفرة بسنة عامة، وهي الإغراق في الحالين، وبينهما أمم كثيرة أصابها هذا المصير المعتم.

الثاني: تكذيب ومصير كلا القومين والأسباب التي دعت كلا منهما إلى معارضة الرسل؛ فقوم نوح بنوا حجتهم على أن نوحا بشر والرسالة الإلهية إن جازت أرسل الله بها الملائكة. وقوم فرعون واجهوا رسالة موسى – حسب ما ذكرت السورة - بحجة اجتماعية، وهي أن قوم موسى وهارون عليهما السلام عبيد لهم، فكيف يتبعون بشرين قومهما لهم عابدون؟! فلمزوهم بالبشرية أولا، ثم بعبودية قومهما لهم ثانيا.

وبين هذين النبيين جاءت قصة هود أو صالح عليهما السلام بدون التصريح باسم النبي ولا القوم، ثم جاء العطف المزدوج الذي خرج إلى العموم الشامل لكل الأقوام والأنبياء بين نوح وموسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ. مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا

[16] - وأما ذكر عيسى وأمه عليهما السلام في آية واحدة بعد ذكر موسى عليه السلام، فجاء بصيغة وطريقة مختلفة عمن سبقهم من الأنبياء: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ (50)؛ أي لم يأت في صورة قوم مكذِّبين لرسولهم عذبهم الله، وقد يكون هذا تمهيدًا لبيان تغيير قوانين العلاقة بين النبي وقومه؛ فبدلا من السنة العامة التي يهلك الله به القوم، تزحف عليهم العلل والتحديات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تؤخر ركبهم.

وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ. ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فما فائدة هذا التعميم؟

إن أفاد التصريح بأسماء بعض الأنبياء في السورة أن ما يحكيه القرآن من قصص الأمم السابقة، والمصير الذي أداهم إليه التكذيب بالرسل؛ هو حقيقة يقينية شهدها تاريخ الإنسان، وليست مجرد تمثيل افتراضي ولا قانون نظري عام، فإن التعميم الذي بينهما، وبأسلوب العطف المزدوج؛ يعني أن بين القومين والنبيين أمما أخرى وأنبياء آخرين تكررت معهم هذه السنة الإلهية، إلا أنه لما كان عدد هذه الأمم والأنبياء كبيرًا، وبعضهم يشارك بعضا في الزمن (لوط وإبراهيم عليهما السلام وقومهما مثلا)، فكان لابد من جمع هؤلاء في سياق كليّ بهذه الصورة يثبت السنة الإلهية العامة التي تعاقب من يكذِّب بالرسل ويرغب عن الإيمان وعن سبيل المؤمنين.

والتداخل هنا قد يفيد التساوي بين هؤلاء الأقوام في السلوك الذي اختاروه في التعامل مع دعوات الأنبياء لهم إلى الإيمان والمصير الذي آل إليه كل منهم، ومن شأن هذا أن يؤكد على مُضيّ هذه السُّنة واضطرادها مهما اختلفت التفاصيل الأخرى من حالة إلى حالة.

وبهذا يكون العطف المتداخل في الآيات السابقة من سورة المؤمنون قد خدم المعنى المراد بالآيات، ويمكن أن نعرج على باقي النماذج ببيان مماثل، إلا أنه ليس غرضَنا من هذه الدراسة، بل قصدنا إلى بيان العطف المتداخل وتجلية مفهومه وبيان أن له وظيفة بلاغية.

خاتمة

وبعد، فلعل أهم ما يمكن استخلاصه من هذه الدراسة يتمثل فيما يلي:

1- أن "ثم" واحد من حروف المعاني المهمة التي اتكأت عليها اللغة العربية في أداء معانيها، ويكاد يكون تعبيره عن معنى الترتيب بين المعطوف والمعطوف عليه مع التراخي والمهلة متفقًا عليه بين اللغويين، وإن كانوا حمّلوه معاني أخرى كثيرة استنادًا إلى سياقاته التي ورد فيها.

2- التداخل الزمني في العطف بـ"ثم" ظاهرة لغوية لم يتم رصدها، وعلها شواهد مؤكدة وأخرى محتملة في القرآن الكريم، وذلك بأن تُعطَف مجموعة وقائع على مجموعة وقائع أخرى، دون أن يكون بينهما تعاقب تام بأنْ تَلِيَ الثانيةُ الأولى في الزمن، بل تتخللها وتتداخل معها.

3- يؤدي هذا الأسلوب وظائف بلاغية تتفاوت في سياقاتها من موضع إلى آخر، وقد ظهر في سورة المؤمنون أن العطف المتداخل ساعد على التأكيد على عموم سنة الله تعالى في معاقبة المعاندين للأنبياء مع جلاء الحق ووضوحه لهم.

Bibliography

1. Al-Iji, Muhammad ibn ʿAbd al-Rahman al-Shirazi al-Shafiʿi: *Jāmiʿ al-Bayān fī Tafsīr al-Qurʾān*, taḥqīq: Dr. ʿAbd al-Ḥamīd Hindāwī, al-ṭabʿah al-ʾūlā, Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah – Beirut, 1424 AH / 2004 CE.
2. Al-Bukhārī, Muhammad ibn Ismāʿīl: *Al-Jāmiʿ al-Ṣaḥīḥ wa-huwa al-Jāmiʿ al-Musnad al-Ṣaḥīḥ al-Mukhtaṣar min Umūr Rasūl Allāh ﷺ wa-Sunanih wa-Ayyāmih*, Ṭabʿah maṣwrah ʿan nashrat al-maṭbaʿah al-ʾamīriyyah bi-Būlāq (al-ṭabʿah al-sulṭāniyyah) – Cairo 1311–1313 AH, Dār Ṭawq al-Najāh – Beirut, 1422 AH.
3. Al-Baghawī, Abū Muḥammad al-Ḥusayn ibn Masʿūd al-Baghawī: *Maʿālim al-Tanzīl*, Dār Ibn Ḥazm – Beirut, 1423 AH / 2002 CE.
4. Al-Rummānī, Abū al-Ḥasan ʿAlī ibn ʿĪsā: *Maʿānī al-Ḥurūf*, ḥaqqaqahu wa-kharraja ḥadīthahu wa-ʿallaqa ʿalayh: al-Shaykh ʿIrfān ibn Salīm al-ʿAshā Ḥasūnah al-Dimashqī, al-Maktabah al-ʿAṣriyyah – Ṣaydā wa-Beirut, 1425 AH.
5. Al-Zajjāj, Abū Isḥāq Ibrāhīm ibn Muḥammad ibn al-Sarī: *Maʿānī al-Qurʾān wa-Iʿrābuh*, sharḥ wa-taḥqīq: Dr. ʿAbd al-Jalīl ʿAbduh Shalabī, al-ṭabʿah al-ʾūlā, ʿĀlam al-Kutub – Beirut, 1408 AH / 1988 CE.
6. Al-Zajjājī, Abū al-Qāsim ʿAbd al-Raḥmān ibn Isḥāq: *Ḥurūf al-Maʿānī*, ḥaqqaqahu wa-qaddama lahu: Dr. ʿAlī Tawfīq al-Ḥamad, al-ṭabʿah al-thāniyah, Muʾassasat al-Risālah – Beirut, wa-Dār al-Amal – Irbid, Jordan, 1406 AH / 1986 CE.
7. Al-Zurqānī, Muḥammad ibn ʿAbd al-Bāqī: *Sharḥ al-Mawāhib al-Laduniyyah bi-al-Minaḥ al-Muḥammadiyyah li-al-Qasṭallānī*, ḍabaṭahu wa-ṣaḥḥaḥahu: Muḥammad ʿAbd al-ʿAzīz al-Khālidī, al-ṭabʿah al-ʾūlā, Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah – Beirut, 1417 AH / 1996 CE.
8. Al-Zamakhsharī, Maḥmūd ibn ʿUmar: *Al-Kashshāf ʿan Ḥaqāʾiq Ghawāmiḍ al-Tanzīl wa-ʿUyūn al-Aqāwīl fī Wujūh al-Taʾwīl*, taḥqīq wa-taʿlīq wa-dirāsah: ʿĀdil ʿAbd al-Mawjūd, ʿAlī Muʿawwaḍ, wa-Dr. Fatḥī Ḥijāzī, al-ṭabʿah al-ʾūlā, Maktabat al-ʿUbaykān – Riyadh, 1418 AH / 1998 CE.
9. Al-Ṭabarī, Abū Jaʿfar Muḥammad ibn Jarīr: *Jāmiʿ al-Bayān ʿan Taʾwīl Āy al-Qurʾān*, taḥqīq: Dr. ʿAbd Allāh al-Turkī wa-ākharūn, al-ṭabʿah al-ʾūlā, Dār Hajr – Cairo, 1422 AH / 2001 CE.
10. ʿUḍaymah, Muḥammad ʿAbd al-Khāliq: *Dirāsāt li-Aslūb al-Qurʾān al-Karīm*, Dār al-Ḥadīth – Cairo, 1392 AH / 1972 CE.
11. Al-Farrāʾ, Yaḥyā ibn Ziyād: *Maʿānī al-Qurʾān*, taḥqīq: Aḥmad Yūsuf Najātī, wa-Muḥammad ʿAlī al-Najjār, Maṭbaʿat Dār al-Kutub al-Miṣriyyah – Cairo, 1374 AH / 1955 CE.

12. Al-Murādī, al-Ḥasan ibn Qāsim al-Murādī: *Al-Janā al-Dānī fī Ḥurūf al-Maʿānī*, taḥqīq: Dr. Fakhr al-Dīn Qabāwah wa-Muḥammad Nadīm Fāḍil, al-ṭabʿah al-ʾūlā, Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah – Beirut, 1413 AH / 1992 CE.
13. Muslim ibn al-Ḥajjāj al-Qushayrī: *Ṣaḥīḥ Muslim al-Musammā al-Musnad al-Ṣaḥīḥ al-Mukhtaṣar min al-Sunan bi-Naql al-ʿAdl ʿan al-ʿAdl ilā Rasūl Allāh* ﷺ, khidmah wa-ʿināyah: Naẓar Muḥammad al-Fāriyābī, al-ṭabʿah al-ʾūlā, Dār Ṭayyibah – Riyadh, 1427 AH / 2006 CE.